القلب المسكين
ـ ٩ ـ
ـ تتمة ـ

قال صاحب القلب المسكين : ووقفت المحامية وكأنَّها بين الحرَّاس تزدحم عليها من كلِّ ناحيةٍ ، وقد ظهرت للموجودين ظهور الجمال للحبِّ ، ونقلتهم في الزَّمن إلى مثل السَّاعة المصوَّرة التي ينتظر فيها الأطفالُ سماع القصَّة العجيبة ، ساعةٌ فيها كلُّ صور اللَّذَّةِ للقلب .

وكانت تدافع بكلامها ، ووجهها يدافع عن كلامها ، فلو نطقت غيّاً ، أو رشداً ؛ فلهذا صوابٌ ، ولهذا صوابٌ ؛ لأنَّ أحد الصَّوابَيْنِ منظورٌ بالأعين .

كان صوتُ النَّائب العامِّ كلاماً يُسْمَع ، ويُفْهم ، أمَّا صوت المحامية الجميلة ؛ فكان يُسمع ، ويُفهم ، ويُحسُّ ، ويُذاق ؛ تُلقيه هي من ناحية ما يُدْرَك ، وتتلقَّاه النَّفس من ناحية ما يُعشق ، فهو متَّصلٌ بحقيقتين من معناه ، ومعناها ، وهو كلُّه حلاوة من فمها الحلو .

* * *

وبدأت ، فتناولت من أشيائها مرآةً صغيرةً ، فنظرت فيها .

النَّائب العامُّ : ما هذا يا أستاذة ؟ !

المحامية : إنَّكم تزعمون : أنَّ هذه الجريمة تأليف عينيَّ ، فأنا أسأل عينيَّ قبل أن أتكلَّم !

النَّائب : نعم يا سيِّدتي ! ولكنِّي أرجو ألا تُدخلي القضيَّة في سرِّ المرآة ، وأخواتها . . . إنَّ النِّيابة تخشى على اتِّهامها إذا تكحَّلتْ لغةُ الدِّفاع !

فضحكت المحامية ضحكةً كانت أوَّلَ البلاغة المؤثِّرة .

ـ النَّائب : من الوقار القانونيِّ أن تكون المحامية الفتَّانة غيرَ فتانةٍ ، ولا جذابةٍ أمام المحكمة .

ـ المحامية : تريد أن تجعلها عجوزاً بأمر النِّيابة ؟ (ضحك) .

ـ النَّائب : جمال حسناء في ظرف غانيةٍ ، في شمائل راقصةٍ ، في حماسة عاشقةٍ ، في ذكاء محاميةٍ ، في قدرة حبٍّ . هذا كثيرٌ !

ـ المحامية : يا حضرات المستشارين ! لم تكن المرآة هفوةً من طبيعة المرأة ، ولكنَّها الكلمة الأولى في الدِّفاع . كلمة كان الجواب عنها من النَّائب العامِّ : أنَّه أقرَّ بتأثير الجمال ، وخطره ، حتَّى لقد خشي على اتِّهامه ؛ إذا تكحَّلت له لغتي .

ـ القضاة يتبسَّمون .

ـ النَّائب : لم أزد على أن طلبت الوقار القانونيَّ ؛ الوقار ، نعم الوقار ، فإنَّ المحامية أمام المحكمة . هي متكلِّم ، لا متكلِّمة .

ـ المحامية : متكلِّمٌ بلحية مقدَّرةٍ منع من ظهورها التَّعذُّر . . . (ضحك) .

كلا يا حضرة النَّائب ! إنَّ لهذه القضيَّة قانوناً آخر ، تُتنزَع منه شواهد ، وأدلَّة ، قانون سحر المرأة للرَّجل ، فلو اقتضاني الدِّفاع أن أرقص ؛ لرقصت ، أو أغنِّي ، لغنَّيت ، أو أثبت سحر الجمال ؛ لأثبتُّه أوَّل شيءٍ في النائب العامِّ .

ـ الرَّئيس : يا أستاذة !

ـ المحامية : لم أجاوز القانون ، فالنَّائب في جريمتنا هو خصم القضيَّة ، وهو أيضاً خصم الطَّبيعة النِّسويَّة .

ـ النَّائب : لو حدث من هذا شيءٌ ؛ لكان إيحاءً لعواطف المحكمة . . . فأنا أحتجُّ !

ـ المحامية : احتجَّ ما شئت ! ففي قضايا الحبِّ يكون العدل عدلين ؛ إذ كان الاضطرار قد حكم بقانونه قبل أن تحكم أنت بقانونك .

ـ النَّائب : هذه العقدة ليست عقدةً في منديلٍ يا سيِّدتي ، بل هي عقدةٌ في القانون .

ـ المحامية : وهذه القضيَّة ليست قضيَّة إخلاء دارٍ يا سيِّدي ! بل هي قضيَّة إخلاء قلبٍ !

ـ الرَّئيس : الموضوع ! الموضوع !

ـ المحامية : يا حضرات المستشارين ! إذا انتفى القصد الجنائيُّ ؛ وجبت البراءة . هذا مبدأٌ لا خلاف عليه ؛ فما هو الفعل الوجوديّ في جريمة قلبي المسكين ؟

ـ النَّائب : أوَّله حبٌّ راقصةٍ .

ـ المحامية : آه ! دائماً هذا الوصف ، هبوها في معناها غير جديرةٍ بأن يعرفها ؛ لأنَّه رجلٌ تقيٌّ ، أفليست في حسنها جديرةً بأن يحبَّها ؛ لأنَّه رجلٌ شاعرٌ ؟ احكموا يا حضرات القضاة ! هذه راقصةٌ ترتزق ، وترتفق ، ومعنى ذلك أنَّها رَهْنٌ بأسبابها ، ومعنى هذا أنَّها خاضعةٌ للكلمة التي تدفع ، فلماذا لم ينلها وهي متعرِّضةٌ له ، وكلاهما من صاحبه على النِّهاية ، وفي آخر أوصاف الشَّوق ؟ أليس هذا حقيقاً بإعجابكم القانونيّ ، كما هو جديرٌ بإعجاب الدِّين ، والعقل ؟ وإن لم يكن هذا الحبُّ شهوةَ فكرٍ ، فما الذي يحول دونها ، وما يمنعه أن يتزوَّجها ؟

ـ القضاة يتبسَّمون .

ـ النَّائب : نسيَتِ المحامية : أنَّها محاميةٌ ، وانتقلت إلى شخصيَّتها الواقعة على النِّهاية ، وفي آخر أوصاف الشَّوق . . . فأرجو أن ترجع إلى الموضوع ، موضوع الرَّاقصة .

ـ المحامية : آه ! دائماً الرَّاقصة ، مَن هي هذه المسكينة الأخيرة في أيدي الجوع ، والحاجة ، والاضطرار ؟ أليست مجموعة فضائل مقهورةً ؟ أليست هي الجائعة التي لا تجد من الفاجرين إلا لحمَ الميتة ؟ نعم إنَّها زلَّت ، إنَّها سقطت ، ولكن بماذا ؟ بالفقر لا غير ، فقير الضَّمير ، والذِّمَّة في رجلٍ فاسدٍ خدعها ، وتركها ، وفقر العدل والرَّحمة في اجتماعٍ فاسدٍ خذلها ، وأهملها ! يا للرحمة لليتيمة من الأهل ، الفاقدة أهلها ، والمنقطعةِ من النَّاس ، والنَّاس حولها !

تقولون : يجب ، ولا يجب ، ثمَّ تدَّعون الحياة الظَّالمة تعكس ما شاءت ، فتجعل ما لا ينبغي هو الذي ينبغي ، وتقلب ما يجبُ إلى ما لا يجب ، فإذا ضاع من يضيع في هذا الاختلاط ؛ قلتم له : شأنك بنفسك ، ونفضتم أيديكم منه ، فأضعتموه مرَّةً أخرى ، ويحكم يا قوم ! غيِّروا اتجاهَ الأسباب في هذا الاجتماع الفاسد ، تخرج لكم مسبِّباتٌ أخرى غير فاسدةٍ .

تأتي المرأة من أعمال الرَّجل لا من أعمال نفسها ، فهي تابعةٌ ، وتظهر كأنَّها متبوعةٌ ، وذلك ظلم الطَّبيعة للمسكينة ؛ ومن كونها تظهر كأنَّها متبوعةٌ ، يظلمها الاجتماع ظلماً آخر ، فيأخذها وحدها بالجريمة ، ويقال : سافلة ، وساقطة ، وما جاءت إلا من سافلٍ ، وساقطٍ !

لماذا أوجبت الشَّريعة الرَّجْمَ بالحجارة على الفاسق المُحْصَن ؟ أهي تريد القتل ، والتَّعذيب ، والمُثلة ، كلا فإنَّ القتل ممكنٌ بغير هذا بأشدَّ من هذا ، ولكنَّها الحكمة السَّامية العجيبة : إنَّ هذا الفاسق هَدَم بيتاً فهو يُرجم بحجارته !

ما أجلَّكِ ، وأسماكِ يا شريعة الطَّبيعة ! كلُّ الأحجار يجب أن تنتقم لحجر دار الأسرة إذا انهدم .

تستسقطون المسكينة ، ولو ذكرتم آلامها ؛ لوجدتم في ألسنتكم كلمات الإصلاح ، والرَّحمة ، لا كلمات الذَّمِّ ، والعار ؛ إنَّها تسعى برذيلتها إلى الرِّزق ؛ فهل معنى هذا إلا أنَّها تسعى إلى الرِّزق بأقوى قوَّتها ؟ نعم إنَّ ذلك معنى الفجور ، ولكن أليس هو نفسه معنى القوت أيُّها النَّاس ؟ !

ـ الرَّئيس ـ وهو يمسح عينيه ـ : الموضوع ! الموضوع !

المحامية : ما هو الفعل الوجوديُّ في جريمة قلبي المسكين ؟ ما هو الواقع من جريمةٍ يَضرب صاحبُها المثلَ بنفسه للشَّباب في تسامي غريزته عن معناها إلى أظهر ، وأجمل من معناها ؟ لبئس القانون إن كان القانون يعاقب على أمرٍ قد صار إلى عملٍ دينيٍّ من أعمال الفضيلة !

ـ النَّائب : ألا يخجل من شعوره بأنَّه يحبُّ راقصةً ؟

ـ المحامية : وممَّ يخجل ! أمن جمال شعوره ، أم من فنِّ شعوره ؟ أيخجل من عظمةٍ في سموٍّ في كمالٍ ؟ أيخجل البطل من أعمال الحرب ، وهي نفسها أعمال النَّصر ، والمجد ؟

أتأذنون يا حضرات المستشارين أن أصف لكم جمال صاحبته ، وأن أُظهر شيئاً من سرِّ فنِّها ؛ الذي هو البيان في فنِّه ؟

ـ النَّائب : إنَّها تتماجن علينا يا حضرات المستشارين ، فالَّذي يحاكم على السُّكر لا يدخل المحكمة ومعه الزُّجاجة .

ـ الرَّئيس : لا حاجة إلى هذا النَّوع من ترجمة الكلام إلى أعمالٍ يا حضرة الأستاذة !

ـ المحامية : كثيراً ما تكون الألفاظ مترجمةً خطأً بِنيّات المتكلِّمين بها ، أو المُصغين إليها ؛ فكلمة الحبِّ مثلاً قد تنتهي إلى فكرٍ من الأفكار حاملةً معنى الفجور ، وهي بعينها تبلغ إلى فكرٍ آخر حاملةً إلى سموِّه من سموِّها ؛ وعلى نحوٍ من هذا يختلف معنى كلمة الحجاب عند الشَّرقيِّين ، والأوربيِّين ؛ فالأصل في مدنية هؤلاء إباحة المعاني الخفيفة من العفَّة . . . وإكرام المرأة إكرام مغازلةٍ . . . يقولون : إنَّ رقم الواحد غير رقم العشرة ، فيضعونه في حياة المرأة ، فما أسرع ما يجيء « الصِّفر » فإذا هو العشرة بعينها !

أمَّا الشَّرقيُّون ، فالأصل في مدنيَّتهم التزام العفَّة ، وإقرار المرأة في حقيقتها لا جَرَمَ كان الحجاب هنا ، وهناك بالمعنيين المتناقضين : الاستبداد والعدل ، والقسوة والرَّحمة ، و . . .

النائب : وامرأة البيت ، وامرأة الشَّارع .

المحامية : وبصر القانون ، وعمى القانون .

الرَّئيس : وحسن الأدب ، وسوء الأدب . . . الموضوع ! الموضوع !

المحامية : لا والذي شرفكم بشرف الحكم يا حضرات المستشارين ! ما يرى القلب المسكين في حبيبته إلا تعبير الجمال ، فهو يفهمها فهم التَّعبير ككلِّ موضوعات الفنِّ ، وما بينه وبينها إلا أنَّ حقيقة الجمال تعرَّفت إليه فيها ، أئن أحسَّ الشَّاعر سرّاً من أسرار الطَّبيعة في منظرٍ من مناظرها ؛ قلتم : أجرم ، وأثم ؟ .

هذا قلبٌ ذو أفكارٍ ، وسبيله أن يُعان على ما يتحقَّق به من هذا الفنِّ ، قد تقولون : إنَّ في الطَّبيعة جمالاً غير جمال المرأة ، فليأخذ من الطَّبيعة ، وليعطِ منها ، ولكن ما الذي يحيي الطَّبيعة إلا أخذَها من القلب ؟ وما هي طريقة أخذها من القلب إلا بالحبِّ ؟ وقد تقولون : إنَّه يتألَّم ، ويتعذَّب ، ولكن سلوه : أهو يتألَّم بإدراكه الألم في الحبِّ ، أو بإدراكه قسوة الحقيقة ، وأسرار التعقيد في الخير والشَّرِّ ؟ .

إنَّ شعراء القلوب لا يكونون دائماً إلا في أحد الطَّرفين : هَمٌّ أكبر من الهمِّ ،

وفرحٌ أكثر من الفرح ، فإذا عشقوا ؛ تجاوزوا موضع الوسط الذي لا يكون الحبُّ المعتدل إلا فيه ، ومن هذا فليس لهم آلام معتدلةٌ ، ولا أفراح معتدلةٌ .

هذا قلبٌ مختارٌ من القدرة الموحِية إليه ، فالَّتي يحبُّها لا تكون إلا مختارة من هذه مقدرة اختيار مَلَك الوحي ، وهما بهذا قوَّتان في يد الجمال لإبداعِ أثرِ عظيمٍ ملء قدرتين كلتاهما عظيمةٌ .

فإن قلتم : إنَّ حبَّ هذا القلب جريمةٌ على نفسه ، قالت الحقيقة الفنيَّة : بل امتناع هذه الجريمة جريمةٌ .

إن خمسين وخمسين تأتي منهما مئة ، فهذا بديهيٌّ ، ولكنَّه ليس أبْين ، ولا أظهر ، ولا أوضح من قولنا : إنَّ هذا العاشق ، وهذه المعشوقة يأتي منهما فنٌّ .

* * *

قال صاحب القلب المسكين : وانصرف القضاة إلى غرفتهم ؛ ليتداولوا الرَّأي فيما يحكمون به ، وأومأتْ لي المحامية الجميلة تدعوني إليها ، فنهضتُ فإذا أنا جالسٌ وقد انتبهت من النَّوم .

* * *

جائزة[١] : لمن يحسن كتابة الحكم في هذه القضيَّة خمس نسخ من كتاب (وحي القلم) وترسل المقالات (باسمنا إلى طنطا) والموعد (إلى آخر شهر يناير هذا) والشَّرط رضا المحكَّمين ، ومنهم صاحب القلب المسكين ، وصاحبته .

* * *

(١) قلت : وردت إلى المؤلف مئات الرَّسائل بحكم أصحابها في قضية (القلب المسكين) ، ولكن مسابقة الحكم في هذه القضيَّة لم يفصل فيها ، لأنَّ قاضيها الأول ومتَّهمها الأوَّل قد غاله الموتُ قبل أن يرى رأيه ، ويحكم حكمه . (س) .